الاستدراج

د. محمد بن إبراهيم النعيم

رَحِمَهُ ٱللَّهُ

شبكة الألوكة
www.alukah.net

الاستدراج

د. محمد بن إبراهيم النعيم
رَحِمَهُ ٱللَّهُ

بِسْمِ
اللَّه
الرَّحْمنِ
الرَّحِيَمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

لقد سن الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الكون سننا لا تتغير ولا تحيد، سنن لا تحابي أحدا سواء كان من المسلمين أم الكافرين..

سنن في البلاء والابتلاء، سنن في التمحيص وسنن في الإملاء والاستدراج، وسنة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الترف والمترفين، وسنة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الطغيان والطغاة والمتكبرين، وسنة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فيمن بطر النعمة وجحدها، وسنة الله في الرزق والتغيير والتدافع بين أهل الحق والباطل..

سنن كثيرة..

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾ [فاطر:٤٣].

فهل عرفنا هذه السنن وكيف نتعامل معها حتى لا ننخدع بها أو نغتر؟

دعوني أعرض لكم سنة من سنن الله في هذا الكون، وهي سنة الاستدراج..

فما هو الاستدراج؟

وماذا قال عنه الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؟

وكيف أعرف أني مستدرج؟

وكيف أتعامل مع هذه السنة؟ بمعنى: ما هو العلاج إذا علمتُ أني مستدرج؟

فالاستدراج هو الأخذ بالتدرج..

فكلما أذنب العبد زاده الله من النعم وأنساه التوبة، فيدنيه من العذاب قليلا قليلا ثم يصبه عليه صبا.

يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٢].

وقال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم:٤٤].

لهذا لا ينبغي أن نغتر بما أوتي الكفار من نعم في الدنيا؛ لأن الله يستدرجهم ويملي لهم، قال تعالى ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [فاطر:٤٣].

والاستدراج لا يكون للكفار فقط؛ وإنما يقع على الكافر والمسلم على حد سواء، فقد جاء عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنْ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ»، ثُمَّ تَلا رَسُولُ اللَّهِ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (١).

ومعنى الحديث: أنك إذا رأيت الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يعطي العبد من النعم ويزيده منها، وهذا العبد لا يزال مقيما على معاصيه، فاعلم أن ذلك استدراج من الله تعالى لذلك العبد الذي اغتر بتلك النعم، وظن أن الله تعالى راض عنه.

(١) رواه الإمام أحمد (١٧٣١١).

وقد يسأل سائل: متى يكون العطاء من الله استدراجا ومتى يكون إنعاما؟

إذا أعطاك الله لأنك شكرته وحمدته فهذا إنعام؛ لأن الله وعد بالزيادة لمن شكر فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، وأما إذا أعطاك الله وأنت لا تزال مقيما على معاصيك، فاعلم أن ذلك استدراجا، لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنْ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ».

فإذا رأيت الله تعالى يوسع على إنسان وهو ظالم، ومع ذلك تزداد رتبته وتزداد منزلته وتزداد ثرواته وخيراته، فلا تظن أن ذلك لكرامته على الله..

خصوصا إذا كان يزدادُ في الوقت ذاته طغيانا ومعصية، وإنما ذلك من باب الاستدراج.

فإنك تجد بعض المدراء أو المسئولين في دائرة معينة يعطيه الله تعالى من الجاه والسمعة والثراء السريع وثناء المرؤوسين عليه، وهو مقيم على معصية الله بتقصيره في أداء هذه الوظيفة وقبول الرشوة وظلم الموظفين وبخسهم حقوقهم، واستغلال منصبه باختلاس الملايين من المشاريع الحكومية، مغترا بستر الله عليه، وثناء من حوله عليه إما مجاملة أو خوفا من سطوته، والمسكين لا يعلم أن الله يستدرجه.

وإنك لترى التاجر يتاجر في بضائع محرمة فيرزقه الله المال الوفير من هذه التجارة،

ويظن أن الله وفقه في هذه التجارة لرضاه عنه، وقد يقول في داخل نفسه: لو كانت تجارتي لا ترضي الله لما وجدت التوفيق فيها، ولرأيت من ينصحني في المنام، ونحو ذلك من مسوغات شيطانية، وما علم أن الله لا يعامل خلقه كمعاملته لأنبيائه، فإن الله قد يعجل عقوبة عبده في الدنيا إن أراد به خيرا، أو قد يستدرجه حتى يغتر ولا يتوب؛ ليزيده عذابا في الآخرة.

وعلى مستوى الأمم..

فإن الله تعالى قد يفتح على أمة من النعم الشيء الكثير، فإذا تنكبت عن شرع الله، زادها الله غنى، وفتح لها من خزائن الأرض، فهي تزداد بعدا عن الله، والله يفتح لها أبواب كل شيء

استدراجا لها حتى ينزل عليها عقوبته بغتة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٤١-٤٥].

وأمّا إذا رأيت الله عجّل عقوبة عبده في الدنيا لذنب أصابه، فاعلم بأن الله أراد بذلك العبد خيرا؛ لأنه نال جزاءه في الدنيا، فقد جاء عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلاً لَقِيَ امْرَأَةً كَانَتْ بَغِيًّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَجَعَلَ يُلاعِبُهَا حَتَّى

بَسَطَ يَدَهُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ الْمَرْأَةُ: مَهْ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ ذَهَبَ بِالْجَاهِلِيَّةِ وَجَاءَنَا بِالإِسْلامِ، فَوَلَّى الرَّجُلُ فَأَصَابَ وَجْهَهُ الْحَائِطُ فَشَجَّهُ ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: «أَنْتَ عَبْدٌ أَرَادَ اللهُ بِكَ خَيْرًا، إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا، عَجَّلَ لَهُ عُقُوبَةَ ذَنْبِهِ، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ شَرًّا، أَمْسَكَ عَلَيْهِ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَفَّى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ عَيْرٌ»[1] وعَيْرٌ: اسم جبل في المدينة.

ولا يعني هذا أن تتمنى أن يعجّل الله لك العقوبة في الدنيا كي لا تستدرج؛ لأن المسلم مطالب أن يسأل الله العافية ولا يتمنى البلاء ولا العقوبة.

(١) رواه الإمام أحمد (١٦٨٠٥)، وابن حبان (٢٩١١).

فقد روى أَنَسُ بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَادَ رَجُلاً مِنْ الْمُسْلِمِينَ قَدْ خَفَتَ فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟» قَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَقُولُ: اللَّهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ لا تُطِيقُهُ، أَوْ لا تَسْتَطِيعُهُ، أَفَلا قُلْتَ: اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ؟»، قَالَ: فَدَعَا اللَّهَ لَهُ فَشَفَاهُ[1].

فإذا رأيت الله يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على معاصيه، أو تستخدم هذه النعم في معصية الله، فاحذر كل الحذر، فإنما هو استدراج من الله،

(١) رواه الإمام مسلم (٢٦٨٨).

فبادر إلى التوبة وتصحيح المسار، وقابل تلك النعم بشكرها وصرفها في مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ، فكما قال أحد السلف: «رُبَّ مستدرجٍ بنعم الله وهو لا يعلم».

فهذا مقياس دقيق يمكن أن تحاسب به نفسك..

فإذا أغدق الله عليك من نعمه، وأنت لا تزال تعصي الله كثيرا، ومع ذلك يوسع الله عليك ويعطيك أكثر مما يعطي العبد المؤمن الصالح، فاعلم بأن الله يستدرجك ويملي لك، وأن الله قد يؤخر عقوبتك في الآخرة؛ لأنها أشدّ، لذلك بادر إلى التوبة والاستغفار، قبل أن تؤخذ على غفلة.

اللهم إننا نعوذ بك
من أن نكون من المستدرجين..
ونسألك أن تجعلنا
من عبادك الشاكرين المخلصين..
اللهم بصرنا بعيوبنا واغفر لنا زلتنا
واجعلنا من المهتدين.

جعلني الله وإياكم
من الذين يستمعون القول فيتبعون
أحسنه..

وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم.

تصميم الصفحات
الفتح
maktab.alfath@gmail.com
0114 99 56 76 6

هذا الكتاب منشور في